تقديم

الطبعة الأولى

ما أعجب لعب الحوادث بنا ، وتوجيهها إيانا ؟ فلو أن هذا الكتاب نشر من عام مضى لنشر باسم غير اسمه ، ولنظمت مواده غير نظامها الحاضر . فإلى عام مضى كان عزمى أن أجعل عنوانه « خلال أوربا » ، وأن أرتب مواده على أنه كتاب سياحة ، وأن أجعل إهداءه إلى زوجى أن كان من أجلها اجتيازنا أوربا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . ولم يكن عنوان « ولدى » ليدور يومئذ بخاطرى أو لتجرؤ أن تخطه يدى ، أن كانت كلمة « ولدى » جديرة بأن تثير فى نفسى وفى نفوس أحب الناس إلىّ آلم الذكرى وأفجع الأثر . لكن رحمة الله بنا وعطف القدر علينا وما عوضنا عما احتسبنا ،خفف من لوعة هذه الذكرى الأليمة التى يثير خيال ورودها إلى النفس عبرات من مآق يعز علىّ أن تنهل منها دمعة ألم واحدة . واليوم وإن بقيت فى القلب ندوبه فإن الثغر ليفترّ عن ابتسامة لهذه الطفلة التى رزقنا والتى نرجو لها ما يرجوه أبر الآباء لأحب البنين ، ونرجو بها فى الحياة متاعاً حرمناه مدى سنوات أربع كنا نمد النظر نحو صيف كل واحدة منها بصبر ذاهب لنفرّ من بلاد الذكرى المحزونة آملين فى فسحة بلاد الله عنها عوضاً . وهيهات أن تعوض بلاد الله جميعاً نفساً كليمة ، وقلباً كسيراً ، وفؤاداً يتنزى ألما ، إلا ما فى تنوع مظاهرها واختلاف الليل والنهار فيها مما يصرف القلب إلى الجديد الذى يقع عليه ، فينسيه من حر لوعته ، ويسكن من نيران جراحه .

فقد ولد لى « ممدوح » فى ٦ من يونيو سنة ١٩١٩ بالقاهرة فى بيت جده لأمه . وكانت جدته لأمه فى السادسة والثلاثين من عمرها ، ولم يبق القدر لها من خلف غير زوجى وأختها . وكانت هذه الجدة الشابة يسيل وجودها كله رقة وتكاد الأمومة تنسيها كل ما سواها من العواطف . وكانت مريضة بالسكر . فلما أنجبت ابنتها ولداً جهدت فى العناية بالطفل وأمه . وبالغت فى الجهد حتى انهدت كل قواها ، فمرضت واشتد بها المرض فلم تستطع مداومة العناية بالطفل وبابنتها التى كانت فى فراش الميلاد ما تزال . وكانت ابنتها الصغرى لما تبلغ الثانية عشرة من عمرها ، وكانت تتردد على المدرسة ؛ فلم يكن يقع عليها – وهى فى سنها

وفى تلمذتها – أن تقوم بخدمة أمها . واضطرت ابنتها التى كانت موضع جهدها ورعايتها أن تترك فراشها لتقوم فى خدمة هذه الأم المريضة فى الليل وفى النهار أياماً طوالاً أعلن الطبيب بعدها أنها فى خطر . وأجريت لها عملية جراحية أسلمت روحها بعد يومين من إجرائها ، وغادرت هذه الحياة صبح ٣ من يوليو سنة ١٩١٩ ، أى بعد مولد ممدوح بسبعة وعشرين يوماً .

وحزنت زوجى لفقد أمها حزن جنون أنساها حالها ، وأنساها ابنها ، وأنساها صحتها . وعبثاً حاولت فى الأيام الأولى أن أرد إليها شيئاً من صوابها . ولئن نسيت فلن أنسى قولها إنها كانت تتمنى لو أن الولد هو الذى مات ؛ فنحن شابان ما نزال . والابن يعوض لكن الأم لا تعوض . ولعل فرط الحزن الذى أنطقها بهذه الكلمة غشى على بصرها فلم تر فى حجب الغيب ما يكنه القدر لها ، ثم لابنها . وأسلمت للحزن نفسها ، وجعلت من واجبها المقدس زيارة قبر أمها وسيلة لمضاعفة أساها وحزنها . وأشهد أن المصاب كان جديراً بكل هذا الأسى . لكنا فى الحياة ألاعيب يعبث بها القدر . ولئن بلغنا على الحياة ما بلغنا من جاه ومكانة ، ولئن امتلأت نفوسنا بما امتلأت به من عاطفة وفضيلة ، لا يفوتنا أنا من القدر هاته الألاعيب ، وأن عبث القدر بها بعض حقه ، وأنا إذا أردنا أن نسمو على الحياة فنحدق إلى القدر وجهاً لوجه فلن يكون ذلك بالسخط منه والحقد عليه ، ولكن بالإذعان له ، والتسليم بحقه ، والرضا بكل ما يصيبنا من جانبه . على أن أفدح ما تصيبنا به الحياة غير جدير أن يترك من الأثر فى نفوسنا إلا ما يذره أعظم ما يسرنا . وكما أن السعى والعمل أكبر مسرة فى الحياة تزيدنا رضا على رضانا وغبطة على غبطتنا بكل خير ننالة ، فالسعى والعمل هما كذلك أكبر عزاء فى أفدح شجن وأجل كارثة .

وتوالت الفصول والسنون وهدأت فى النفوس لوعة الحزن . لكن القدر الذى حرم زوجى أمها أبقى لها « ممدوحاً » وحيداً يرجوها فى براءة طفولته أن تجعل له أخاً وأختاً ، فتكتفى هى عن الحرمان بحمد الله على جوده به علينا ، وبالرجاء الحار أن يبقيه لنا . وكنت أشاركها من أعماق قلبى فى هذا الدعاء ، أن كان الولد قرة عين لنا ، وأن دفع تتابع السنين إلى نفوسنا أنه كل ما قدر لنا من خلف . وإنا لفى الأسبوع الأول من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٥ إذا الولد يمرض مرضاً لم يلق الطبيب إليه أول الأمر بالاً ، ثم إذا به يعلن بعد ثلاثة أيام أن المرض حمى الدفتريا . فى تلك اللحظة اخترقت بصيرة الأمومة حجاب الغيب ، وانهدت الأم باكية تنتحب كأنما رأت الموت رأى العين يمد يده إلى صغيرها يتخطفه منها . ثم تنبهت إلى

واجبها نحوه فأسرعت ترعاه وتمرضه . وعالج الطبيب المرض أياماً خيل إلينا فيها أن كل خطر زال ، وأن دموع الأم التى انسكبت على قسوة القدر ألانت منه فرد اليد الغادرة الممتدة فى جنح الظلام . وفى مساء السبت ١٢ من ديسمبر ذهبت إلى عملى وأنا أشد طمأنينة من كل يوم سبقه منذ مرض الطفل . فلما عدت عند منتصف الليل رأيت الأنوار فى مسكنى والباب مفتوحاً ، فدخلت فقابلتنى زوجى بهذه الكلمة : « ممدوح مات ! » .

تسرى الرجفة إلى بدنى ويقشعر الآن جسمى لكتابة هاتين الكلمتين وقد مضى على سماعى إياهما خمس سنوات وأشهر . نطقت زوجى بهذه العبارة الفاجعة فى صمت الليل الخؤون ، فأسرعت لأرى أين هو ، ودخلت إلى غرفة النوم فإذا أمى جالسة إلى جانب السرير والطفل الذى أورثنا الثكل على ركبتيها ومن حولها أختاى ، اختار الله إحداهما إلى جواره فى ٢ من أغسطس سنة ١٩٣٠ ، وثلاثتهن واجمات كسيرات القلب ينظرن فى حسرة ملتاعة إلى هاته الأم الشابة التى فقدت وحيدها وهى ذاهلة لما تقدر مدى هذا المصاب الكارث ، وتركتهن بعد أن قبلت جبين ولدى وانتقلت إلى غرفة أخرى وقد هوى الحزن بقلبى إلى قرار سحيق . وانتقل ممدوح فى عصر اليوم التالى من بيت أبويه إلى فلاة الصحراء ليرقد إلى جانب جدته الشابة فى جوار الله . وعدت بعد ما ودعته هذا الوداع الأخير ولا شىء أخشاه أكثر من ساعة ألتقى مرة أخرى بزوجى وقد تغيرت حياتنا وقد انطفأ سراجها وخيم عليها الظلام .

والتقينا فى الصباح ، فإذا ذهنها فى شغل بمسائل كثيرة يحاول أن يظفر لكل منها بجواب ، وإذا هى لما يتركز الحزن فى قرارة نفسها بمثل ما تركز بعد ذلك بأيام قلائل . وكانت كبرى المسائل التى تشغلها وتكاد تستأثر بتفكيرها ، مبلغ ما علينا ، هى وأنا ، من تبعة فى هذا الحادث ، وهل كان محالاً علينا أن نتغلب على القدر وأن ندفع الموت عن فلذة كبدنا ؟ وفى سبيل الجواب على هذه المسألة جعلت تحلل التفاصيل وما فعلنا وما كان يجب علينا أن نفعل ، وكيف عاملنا طفلنا أثناء مرضه ، وهل قسونا فى كلمة صدرت منا إليه . وعلى أساس هذا البحث جعلت ترتب أحكاماً كالأحكام التى يرتبها الناس عادة — والسيدات بنوع خاص — على ما يؤديه غيرهم لهم من المجاملات وما يترتب عليهم من دين لهذا الغير مقابل مجاملاته . وأدى هذا البحث بزوجى إلى تقدير فداحة ما أصابنا ، وما ربما كان فى مقدورنا دفعه ، إلى نتائج خفتها وارتعت لها . ولست أدرى ما كان يؤول إليه الأمر لو أن شقيقتىّ لم تكونا يومئذ إلى جانبها ، ولم تقفا كل جهدهما على محاولة صرفها عن

فاجع الأسى الذى ألقت بحياتها بين يديه ، وكأنما كانت تستطيب عذابه وتجد اللذة فى المزيد من مرارته .

أما أنا فأذعنت لحكم القضاء وأسلمت أمرى لله ، إليه مصير الأمور ، وواجهت الزمن ألتمس فيه ما علىّ من واجب أؤديه . وكان أكبر واجبى يومئذ أن أعمل لعزاء زوجتى فهو لى أكبر عزاء . وهل كان يزعجنى أكثر من أن أرى إنساناً ارتبطت بحياته حياتى منذ عقدنا شركة نلتمس بها زينة للحياة تنسينا متاعبها ، بل تجعل هذه المتاعب لذة ونعيماً ، فإذا زينة حياتنا تحطمت فى لحظة ووقف اليأس البشع بشبحه المخيف يصدم شبابها الجدير بالأمل وينذره بجدب الحياة وأن لم يبق لزينة فيها رجاء ! ولولا هذا الواجب الذى كنت أراه ملموساً محسوساً أمامى كل يوم مرات ، لهوّن علىّ القضاء من فجيعتى . فقد رأيت يومئذ أن لا عزاء فى الحياة عن مصاب كمصابنا تتحطم له العزائم وتنشق منه المرائر خير من العمل يلقى الإنسان بنفسه فى أحضانه ويضاعفه ما استطاع إلى مضاعفته سبيلاً . لذلك عدت إلى مكتبى فى اليوم الثالث ، وأسلمت نفسى لمشاغل الصحافة الكثيرة المشاغل ، وجعلت كل همى أن أنسى فى العمل نفسى وأن ألقى إليه كل بالى وكل تفكيرى . والعمل خير بلسم لجراح الحياة بما يستغرق من انتباهنا ، فيشغلنا عن جراحاتنا ويترك للزمان تضميدها فى أناة ورفق . لكنى كنت لا ألبث حين أعود إلى بيتى أن أرى وأسمع ما يحرك ألمى . فجعلت ألتمس فى بعدنا عن موضع الفجيعة سبباً للعزاء . وخيل إلىّ أنى نجحت فيما حاولت من سفرنا إلى السودان لنشهد افتتاح خزان سنار . غير أنى علمت عشية السفر بأن لا سبيل إلى مصاحبة زوجى إياى . وبعد تردد فى السفر دونها رأت هى ضرورة سفرى حتى تتفرغ هى لما كنا شرعنا فيه من البحث عن مسكن آخر لا تحدثنا جدرانه ولا يحدثنا نظامه ، ولا تحدثنا كل صغيرة وكبيرة فيه ، بما يحرك القلب ويهيج الشجن .

وعدت من السودان فألفيتها أتمت بحثها ، وتبدأ يوم وصولى إلى القاهرة انتقالنا إلى المسكن الجديد . إذاً فقد شغلت بعمل هى أيضاً . وإذاً فهى واجدة فى هذا العمل الجديد بعض السلوى . كان ذلك بعض رجائى ، وبخاصة أن كان لها بنظام المنزل عناية تستغرق عادة الكثير من اهتمامها . لكنها هذه المرة اكتفت بالإشراف دون الاشتراك بالفعل ، وتركت أكثر الأمر للعمال يقومون به بإرشادها . وما لبثت أن انتهت من وضع النظام الذى أرادت أن تتم كل واحدة من الغرف على نسقه حتى عادت يخترمها الهم وتتناوبها ألوان الألم .

وأخذت نفسى يومئذ بأن أقلّ ما استطعت من الحديث فى شجنا المشترك ، وأن

أنصرف بها إلى ضروب مختلفة من التفكير ، لعلى أنجو بها ولوبعض الشيء من خيالاتها السوداء المضنية . ولست أدرى حتى اليوم أأسأت أم أحسنت فى اختيار هذا المسلك . فقد فجعت من قبل ذلك ومن بعده فى أخى وفى أختى وهما فى ريعان الشباب الناضر ، فلم يكن لأمنا حديث شهوراً متوالية بعد هاتين الفاجعتين غير ترديدها ما لمصابها فى أغوار نفسها وطيات قلبها من عميق الأثر . أفترى تجد السيدات عن الألم عزاء فى تذكر الألم ؟ أم هن يرين فى استذكار فلذة الكبد التى ذابت وذهبت ما يردّ إليها فى نفوسهن وهماً من حياة ؟ أم تراهن يحسبن القدر أبرَّ بهن فى مستقبل أيامهن حين تدعوه كل أم بما تتقلى عليه نفسها من ذلك الحزن إلى الرثاء لها والإشفاق عليها ؟ لست أدرى ! إلا أننى لو اعتقدت أن القدر يقبل بأى ثمن رجاء فذلك ألا يفجع أما فى ولدها ، وألا يجود به عليها إذا كان قد كتب فى لوحه أنه متوفيه قبلها . فالدمعة التى تسكبها الثاكل ولَدها لا تنهمل من مآقيها ، بل تنهار بنصيب من حبة عينها ومن سواد نظرها متصعدة إلى هناك زفرات ملتهبة متأججة من ذوب قلبها ومن حشاشة فؤادها . وأية دمعة وأية زفرة تذهب بالبصر وتحرق الكبد وتهدم الحياة غير هاته الدموع . ليست دموع أسى ، ولا دموع حزن ، ولا دموع ألم بالغة ما بلغت شدته وقسوته ، بل هى أجزاء من الحياة تسيلها العين ، وهى نفس تساقطها المآقى أنفساً . وإنى لأذكر وأنا أكتب هذه العبارة أمهات ثكلن بعد سن متقدمة وحيداً لهن خلف أبناء ، فلم يجدن فى أبنائه عنه العزاء ، وبقين السنين يذهب بصرهن ثم سمعهن ثم أبعاض حياتهن وهن يحملن مع ذلك فى كل موسم فى محفة حزن سوداء إلى قبر هذا الذاهب تاركاً إياهن يتقلين على جمر الحسرات واللوعات . أفيردد الإنسان لأولئك البائسات بنكبتهن اليائسات من عيشهن ما يحرك شجونهن ؟ أم يصرفهن عن هاته الناحية السوداء لعلهن يجدن فى قبس من رحمة الله رجاء وأملاً ؟

الناس فيما يخيل إلىّ من هذه الناحية أمزجة . ولعل النساء والرجال فى اختلاف المزاج سواء . ولعل للأمل ولانقطاعه فى المزاج أثراً بالغاً . فما أزال حتى اليوم أذكر هذا الشيخ الذى كان يذرى الغلال فى قريتنا ، وقد فقد وحيده البالغ ما يزيد على الأربعين ، والذى رزقه بعد عدد من الأبناء ماتوا صغاراً . فلما فجع فيه ولم يبق لديه فى عوض عنه رجاء ، تولاه الذهول وانقلب الجو كله أمام نظره مليئاً بخيال وحيده الذاهب ، حتى كان كلما سأله إنسان عن حاله وقف يرسل « المواويل » يصعد فى ألفاظها ما يكتوى به من نيران الهم واليأس ، ويردد فيها ما أصابه من فجيعة جعلت حاله ، وجعلت حياته ،

وجعلت الجو المحيط به ، وجعلت كل بقية له فى الحياة فجيعة تطير به على أجنحة من سعير الألم لتهوى به آخر الأمر إلى خلد الموت المريح يلقى فيه ابنه ويستعيد وإياه فيه ذاهب سعادته وهناءته .

وأذكر شيخاً آخر أوتى حظًّا من العلم غير قليل ، مرض ولده الأكبر مرضاً خيف منه على حياته ، فكان على ضعف بصره يقضى النهار على مقربة من ولده ينتف شعيرات ذقنه وتنهلّ الدموع الصامتة من عينيه ، وظل كذلك حتى جاوز ولده الخطر ثم نجا .

وأذكر غير هؤلاء شيوخاً وشباباً يختلف من العلم ومن الإيمان حظهم ، وهم يذعنون للقدر ويأبون أن ينهدَّ ركن عزمهم ، ويرون الحياة واجباً يؤدى ، وخير ما يعين على أدائه مواصلة الجهد للمزيد منه ؛ فإن أصابهم التوفيق فذاك ، وإلا فضمائرهم وقلوبهم وعقولهم فى نجوة من الأسف والأسى . فإذا غلبهم ضعف الإنسان زمناً فليكن واجبهم مغالبته والسمو فوقه والعود للقيام بأداء واجب الحياة .

وأنا من هؤلاء ، فليس يسيغ عقلى أن ينهزم الإنسان أمام حادث من حوادث الحياة أيًّا كان جلاله ، وأن يهن ويضعف . وإذا اضطر الإنسان للوقوف أو للتراجع يوماً ، فليس وقوفه ولا تراجعه هزيمة تدك ركن عزمه ، وإنما هى بعض أعمال الحياة كالتقدم والاندفاع سواء . وكما قد يصيب السوء المتقدم والمندفع وهما فى أشد أوقات اعتزازهما بنصرهما وظفرهما ، كذلك قد يفيد الواقف والمتراجع من موقفه الخير الوفير . ثم إن الحياة كثيراً ما تهزمنا فى ناحية لتصرفنا إلى ناحية غيرها يكون ظفرنا فيها أكبر أثراً ، ويكون ما نؤديه من واجب الحياة فيها أجدى على الحياة وأعود علينا بطمأنينة النفس ، بل بالمجد ، بل بالسعادة . فليس خليقاً إذاً بإنسان أن يبقى كلمة الهزيمة فى سجل ما يدور بخاطره من لفظ أو معنى . وليس خليقاً كذلك بإنسان أن يجعل للنصر معنى يقابل هذه الهزيمة التى يضطرب لهولها المتواكلون وضعاف العزم . وإنما النصر الحق المؤزر أن يتغلب الإنسان على ضعف نفسه ، وأن يؤدى فى الحياة واجبه بإخلاص للحياة .

هذا الإيمان عندى هو الذى دعانى أن أقل من التحدث إلى زوجى فى شجننا المشترك ، وأن أحاول صرفها إلى ضروب من التفكير مختلفة علها تجد فى أحدها ما يعوضها عن سابق حياتها . ونجحت فى حملها على القراءة والإكثار منها ، وعاونتها على اختيار كتب من الأدب الفرنسى بالغة من جمال الأسلوب والتصوير ما يستهوى النفس ويأخذ باللب . على أنى رأيتها تندفع فى قراءتها باحثة عما يحرك شجنها ، حتى إذا عثرت بشىء منه وقفت

عنده وأعادت قراءته ، ثم نقلته إلى كراسة خاصة واستذكرته عن ظهر قلب ، واتخذته وسيلة لإسالة عبراتها فى الفترات القصيرة التى تتاح لها الوحدة فيها . ولم تكن القراءة وحدها هى التى تستحيل فى نفسها عبرة وشجناً ، بل كانت تجد فى كل شىء تعالجه صورة الأسى والألم اللذين دستهما الفجيعة إلى قلبها وإلى أعصابها وإلى دمها وإلى وجودها كله ، واللذين كسوا الحياة أمامها لوناً صحراوياً ممحلاً هو لون اليأس القاتل . وضلت بأحلامها فى هذه الصحراء المحيطة بها بعد أن أجدبت الواحة الوحيدة النضرة التى اشتملت كل رجائها ، فإذا هذه الأحلام لا تجد رجاء إلا فى الموت أو فيما يشبه الموت من انقطاع عن العالم إلى دير من الأديرة أو خلوة من الخلوات . وكنت أحسب هذه الحال يذهب بها الزمان ، وهذه الجراح يأسوها النسيان ، فإذا صاحبتها هى التى يذهب الزمان رويداً رويداً بها ، وكان حياتها كلها جرح برؤه فى انطفائه ، وإذا هى تحول شخصاً آخر نظرته غير نظرتها التى عرفت وإبصاره مضطرب وأعصابه منهدة ، وكل ما فيه نذر مخيفة ، رغم ما كان لها من عنفوان شباب وصحة . ورأى الأطباء أن لا شىء من المرض بها ، ونصحوا جميعاً بضرورة سفرها لتغيير الهواء .

وكنت يومئذ قد بلغ بى الملال ففكرت فى هذا السفر ، ولم أجد خيراً من أوربا مصحاً لزوجى ولى . فسافرت وإياها فى ١٩ من يوليو سنة ١٩٢٦ على الباخرة مونجوليا من بواخر (بنينسيولار وأورينتال) قاصدين مارسيليا فباريس ، وكان لى أربعة عشر عاماً لم أرها لما ضربت الحرب ثم تصاريف الزمن بينى وبين أوربا جميعاً من حجاب . وقضينا فى باريس ثلاثة أسابيع ، ثم غادرناها إلى لندن حيث قضينا سبعة عشر يوماً ومنها عدنا إلى باريس لنمر بها مروراً ، فقضينا بها أسبوعين آخرين . ومن باريس سافرنا فى ١٢ من سبتمبر قاصدين جبال الألب فى السافوا العليا لننتقل منها إلى سويسرا نقطعها من الطرف الفرنسى إلى الطرف الإيطالى ، ثم ننحدر إلى البندقية نزورها ونأخذ بعد ذلك الباخرة حلوان من بواخر (اللويد تريستينو) لترسو بنا فى الإسكندرية فى ١٨ من أكتوبر يوم تمام الشهر الثالث لمغادرتنا مصر . وبحسبى تقديراً لأثر هذه السياحة أن أذكر كلمة كانت تكررها زوجى : « إن باريس ردت إلىّ طعم الحياة » ، وأن أذكر كذلك ساعة ارتقينا الباخرة فى تريستا لتعود بنا إلى مصر ، وحين نظرت هى إلى الشاطئ فانهملت من عينها دمعة اختلطت بماء البحر أسفاً على سياحتنا الجميلة الساحرة التى انقضت وكأنها حلم معسول . وكان لمسافر ظريف ملاحظة أن العبرة المختلطة بماء البحر تعود بصاحبها إلى البحر والسياحة . والحق أنا من

تلك الساعة نذرنا أن نجعل مصيفنا بعيداً عن مصر . وكانت زوجى أشد على تحقيق هذا النذر حرصاً وأشد بضرورة الوفاء به إيماناً . فكانت إذا انتصف الربيع تذكرنى به فنعد العدة ونختار الباخرة ونجهز متاعنا . وكذلك قضينا صيفى سنة ١٩٢٧ و سنة ١٩٢٨ . فى صيف ١٩٢٧ اخترقنا أوربا من الآستانة إلى بوخارست ، فبودابست ، ففينا ، فبراج ، فباريس ، ثم عدنا إلى الوطن . وفى صيف ١٩٢٨ ذهبنا من جنوة إلى برن ، فمايانس ، فكولونيا ، فبرلين فمونيخ ، فبادجاستين ، فباريس ، ففيشى ومنها إلى مرسيليا فالإسكندرية . فلما كانت سنة ١٩٢٩ عاودنا الرجاء فى أن نعود بآفاقنا إلى طفل تعوض علينا ابتسامته جمال أوربا وجمال العالم بأسره .

وإنا اليوم لنشكر القدر كلما ابتسمت طفلتنا وكلما جمعت حياة الوجود كلها إلى جانبنا ، سواء أكنا وإياها فى غرفة صغيرة أو كبيرة من غرف منزلنا أم كنا فى الهواء الفسيح نسعد بها وهى تسعد هذا الهواء وتسعدنا به وترينا زينة الحياة الدنيا نجد فيها على الحياة عزاء بل بالحياة سعادة ، وتغنينا بذلك إلى حد عظيم عن التجوال فى فضاء الله كأنا موكلون به نقطعه . وإنى إذ أذكر هذه السنين التى جبنا فيها أوربا من أقصاها إلى أقصاها لأذكر كثيرين ، ولأذكر أضعافهم كثيرات ، كانوا يقضون حياتهم يذرعون العالم من أمريكا إلى أوربا إلى مصر إلى الصين واليابان ثم لا تجد نفوسهم إلى أى مكان فى العالم مستقرًّا ؛ لأنها نفوس قلقة هائمة تفتقد شيئاً كان سر حياتها وموضع رجائها ، وكانت عنده تقف وبه تتعلق ، فلما انتزع منها جعلت من العالم كله مسرح قلقها عليه وافتقادها رجاء جديداً فى عوض عنه . فأما الذين يسعدهم الحظ بالعوض فيعودون إلى ما كانوا قبل هيامهم فى بلاد الله فيه . وأما الآخرون فيظلون تضيق بهم فسحة العالم زمناً ثم يجدون فى بعض العالم عن ضيقهم بعض السلوى زمناً آخر حتى تطمئن نفوسهم إلى الرجاء أو إلى اليأس . واليأس — كما قالوا — إحدى الراحتين .

وقد تركت هذه السنون الثلاث التى حببت إلينا الارتحال بعيدين عن مكان الذكرى الممضة آثاراً كانت الذكرى تتخلل بعضها فتزيده قداسة وجلالاً . والذكرى والرحيل وآثارهما هى التى أملت هذا الكتاب . وزوجى التى كانت الصورة الحية لقداسة الذكرى هى صاحبة الوحى لخير ما فيه ، ولها من أجل ذلك الفضل الأكبر فى تحريره فضلاً جعلنى أطمع فى إهدائه إليها . لكنها رأت أن يكون الإهداء لولدنا الذى تركنا إلى جوار ربه ، والذى لو بقى حياً لكان اليوم يتدرج إلى الشباب ويمتع كهولتنا بما يفيض عنه من روعة

الشباب وروائه . أما اليوم فحسبنا ما عوضنا القدر ، ورجاؤنا أن تكون الحياة أبرَّ بنا من بعد وأحنى على قلبين ذاقا ألم الفجيعة والثكل واليأس قرابة أربعة أعوام ، ورأيا من قبل ذلك ومن بعده ما يبيض القلب ذكره . ولنا فى عدل القدر أكبر الثقة بأن يحقق هذا الرجاء ، وأن يجعل رحيلنا فى المستقبل وما نكتب عنه مضيئاً بنور النعمة يكسوه ثوب من الطمأنينة للحياة ، ويدفع إليه التفكير فى مجد الإنسان وسعادته ، بدل السعى لتبريد لوعة القلب والعمل لسلوته .

محمد حسين هيكل